إتلاف البيئة البَريَّة
من منظور السُّنَّة النبويَّة

د٠ راشد سعد العجمي (*)

المقدمة :

الحمد لله الذي خلق الخلق فأحسن، وشرع الأحكام فأتقن، حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، ثم أما بعد:

إن الله تعالى قد خلق الكون على نظام مُحكم، كل شيء فيه قائم على التقدير الدقيق والترابط والتكامل، والبيئة الطبيعية جزء من هذا الكون أوجب الله على البشر المحافظة عليها وعدم التعدي عليها بإفسادها أو إتلافها.

ويعتبر تلوث البيئة من أبرز قضايا العصر الحديث، ومن أهم المشكلات التي شغلت العالم لمكافحتها ووضع الحلول لها.

ولقد كان للإسلام السبق في حماية البيئة والمحافظة عليها.

لذا أردت أن أشارك بعلاج مشكلة بيئية من خلال السُّنَّة النبوية وهي متعلقة بالبيئة البرية والتعدي عليها بفعل البشر.

موضوع الدراسة:

بيان وجوب المحافظة على البيئة ومحاربة الفساد والإتلاف المتعلق بها، وكذلك ذكرت أهم المشكلات التي تتعرض لها البيئة البرية على وجه الخصوص، ثم بيَّنت العلاج من خلال السُّنَّة النبوية.

أهمية البحث وسبب اختياره:

اخترت هذا البحث لعدة أسباب:

(*) مدرس في قسم التفسير والحديث – كلية الشريعة– جامعة الكويت.

١- استشعارًا لعظم المسؤولية بسبب تفاقم هذه المشكلة وانتشارها بشكل واسع.
٢- قيامًا بدور المحتسب الشرعي الذي يجب عليه المشاركة الإيجابية بإحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣- تهاون المسلمين وعدم الاكتراث بهذه القضية مع خطورتها علينا الآن ومستقبلاً.
٤- التحذير من تعمُّد الإفساد والإتلاف للبيئة البرية وأنه محرَّم شرعًا.
٥- رغبة في وضع الحلول الشرعية لهذه القضية البيئية.

مشكلة البحث:

إن هذا الإفساد للبيئة البرية متعلقٌ بالضروريات الخمس التي جاء الإسلام للمحافظة عليها وهي: الدين، والنفس، والعِرض، والمال، والعقل، ويخالف التوجيه الشرعي الداعي للمحافظة والعناية بجميع النعم التي سخرها الله للبشر، ومن أهمها البيئة وما يتعلق بها.

وسأدلل على خطورة المشكلة بحادثتين سطرهما التاريخ الحديث تدلان دلالة واضحة على عِظم الأمر ووجوب التصدي له:

١- مجاعة الصين الكبرى التى امتدت لثلاث سنوات من عام ١٩٥٨م إلى عام ١٩٦١م كانت مجموعة من الكوارث الطبيعية بسبب عوامل، مثل: الجفاف وسوء الأحوال الجوية، بلغ عدد الضحايا من (٢٠) إلى (٤٣) مليون شخص، والسبب الحقيقي وراء تلك المجاعة انتشار طيور الدوري أكلت المحاصيل الزراعية فأمر الزعيم الشيوعي في الصين «ماوتسي تونغ» بقتل كل طيور الدوري ليحقق قفزة كبرى في إنتاج المحاصيل الزراعية فأبادوها، ثم انتشر الجراد بشكل مخيف وقد كانت طيور الدوري تتغذى على الجراد فقام الجراد وقضى على كل المحاصيل الزراعية ودمرها مما أدى إلى نفاد الأغذية بشكل سريع وحدوث مجاعة مروعة تُعد من أكبر المجاعات في التاريخ.

٢- مثال آخر في الاتحاد السوفيتي (سابقًا): فالمعروف عن الذئب أنه يفترس الأغنام والأرانب والحيوانات الأليفة الأخرى المفيدة للإنسان؛ لذا حاولت السلطات القضاء على الذئاب، وبعد ذلك انتشرت الأمراض السارية بشكل سريع بين الحيوانات.

- لذا لمسنا في عصرنا الحديث تعدي الإنسان على بيئته البرية وتعمُّد إتلافها ممَّا جلب الكوارث والمشكلات البيئية مثل التصحر، وزحف الرمال، وإبادة الأشجار والزروع والحيوانات مما يؤثر سلبًا على حياة الإنسان.

حدود البحث:

مسألة البيئة كبيرة جدًا ومتشعبة؛ لذلك أردت أن أتناول في بحثي فقط البيئة البرية والتعدي عليها، ولم أتطرق للبيئة البحرية أو الجوية حتى لا يطول البحث.

الدراسات السابقة:

بحمد الله وتوفيقه المكتبة الإسلامية زاخرة بكل ما يتعلق بالبيئة عمومًا من ناحية المحافظة عليها والعناية بها والتحذير من إتلافها، ووقفت على مراجعٍ كثيرة في بحثي لكني أردت أن أتناول جانبًا محددًا وجعلته بحثًا مستقلاً، لذلك يصعب حصر المراجع هنا، وسأعرج على أهمها في ثبت المصادر.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أمَّا المقدمة: فقد ذكرت فيها موضوع الدراسة وأهمية البحث وسبب اختياره، ومشكلة البحث وحدوده، والدراسات السابقة، ثم خطة البحث.

- **المبحث الأول: التحذير من إفساد البيئة وإتلافها**، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : حكم المحافظة على البيئة.

المطلب الثاني: الأدلة على وجوب المحافظة على البيئة.

- **المبحث الثاني: عناية السُّنَّة النبوية بالمحافظة على البيئة**، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : صور وإشارات لحماية البيئة.

الصورة الأولى: البيئة البرية.

الصورة الثانية: البيئة النباتية.

الصورة الثالثة: البيئة الحيوانية.

المطلب الثاني: صور لإتلاف البشر بيئتهم البرية.

الصورة الأولى: الرعي الجائر.

الصورة الثانية: الاحتطاب الجائر.

الصورة الثالثة: الصيد الجائر.

- **المبحث الثالث: العلاج النبوي لحماية البيئة البرية.**

الخاتمـــة: وذكـرت فيهـا أهـم النتـائج والتوصـيات، وأهـم المراجـع، والفهـرس الموضوعي.

المبحث الأول

التحذير من إفساد البيئة وإتلافها

المتأمل في نصوص الشرع الحنيف يخلص إلى نتيجة حتمية ومهمة وهي أن الإسلام حذَّر تحذيرًا دقيقًا من إفساد البيئة بجميع أنواعها؛ بل حثَّ على الاهتمام والعناية بالبيئة والحرص على نموها وازدهارها، وأنَّ هذه القيمة من المقاصد الشرعية المناطة بكل مسلم ومسلمة.

فالله -جل جلاله- خلق الإنسان واستخلفه في الأرض ليحافظ عليها ويعتني بها لا ليفسدها، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)، وقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٢).

وجعل الله هناك ترابطًا وثيقًا بين الإنسان وبيئته المحيطة به فأوجب عليه إعمارها، ونهاه عن العدوان عليها وإفسادها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا...﴾(٣).

فالعلاقة متبادلة بين الإنسان والبيئة فكلاهما يؤثر على الآخر، وللإنسان أثر كبير على البيئة ولهذا دعانا الإسلام إلى التعاون الذي هو مبدأ لحماية البيئة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(٤)

فالآية تدعو إلى التعاون وتنهى عن الإفساد والعدوان على البيئة. ورسخ الإسلام الإطار العام لقانون حماية البيئة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٤) سورة المائدة، الآية ٢.

وقد وضع رسولنا الكريم ﷺ تصورًا عظيمًا لحماية البيئة من العبث والإفساد.

لهذا سأتناول هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: حكم المحافظة على البيئة:

إن القرآن الكريم قد وضع مبدأً عامًّا بمقتضاه يجب على الإنسان أن يتجنب المخـــــاطر ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

إن بيئتنا التي أنعم الله بها علينا يتعين علينا حمايتها والمحافظة عليها لتؤدي دورها كما أراد الله تعالى، وحذرنا من كل ما يسيء إليها ويفسدها بالعقاب الشديد، قـال تعـالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢).

فالإنسان ليس مالكًا للبيئة بل مستخلفًا فيها، يجب عليه المحافظة عليها من أي تدمير أو تخريب بأي شكلٍ من الأشكال التي تؤدي إلى فسادها وتدميرها.

والشريعة الإسلامية جاءت لتحفظ المقاصد الخمسة المهمة؛ قال الإمام الغزالي رحمه الله في المستصفى: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمَّن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوّت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة»(٣).

وهذه المقاصد الإلهية الربانية تتصف بالإحكام والكمال والإتقان، وتراعي حاجات الإنسان وغرائزه التي جُبِل عليها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢١١.
(٣) المستصفى، ص١٧٤.
(٤) سورة الروم، الآية ٣٠.

وللإمام الشاطبي رحمه الله وصفٌ دقيقٌ لها، فقال: «لا بدَّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقدت لم تجرِ مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين»(١).

وأعظم هذه المقاصد كما نصَّ عليه شيخ الإسلام «حفظ الدين بإقامة أركانه المجمع عليها، وترك المحرمات المتفق على تحريمها»(٢).

وحفظ الدين يرتبط ارتباطًا وثيقًا برعاية البيئة التي خلقها الله وسخَّرها لنفع عباده وحذَّر من الاعتداء عليها وإفسادها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾(٣)، فإذا قام الإنسان بشكر الله على ما أنعم عليه زاده من فضله في الدنيا والآخرة، وإذا طغى وأفسد سَلَب الله النّعم منه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾(٤).

وشكر النعم استخدامها فيما خُلقت له، والحذر من إفسادها أو تبديلها؛ فالإنسان في هذه الحياة شريك للبيئة، صلاحها بصلاحه، وفسادها بفساده، ومن المقرر في القواعد الأصولية: أن ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب، والمحافظة على حياة البشر من الضروريات الخمس والحفاظ على البيئة من أكبر ما يحافظ به على حياة الإنسان، فالحفاظ على البيئة أمر واجب بدلالة النصوص الشرعية.

---

(١) الموافقات، ١٨/٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام، ١٨٦/٢٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

(٤) سورة إبراهيم، الآية ٧.

المطلب الثاني: الأدلة على وجوب المحافظة على البيئة:

أولاً: القرآن الكريم:

(أ) أن الله أمر بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[1]، وحفظ البيئة من التعاون على البر؛ إذْ إنَّ البر كلمة جامعة من معانيها الإحسان، والحفاظ على البيئة داخل في ذلك، وبضدها تتبين الأشياء، فبالإفساد والتدمير يكون الإثم والعدوان.

(ب) الفساد في الأرض جُرم يجب القضاء عليه وعلى أهله، وهذا بشهادة أهل الباطل، لذا فإنَّ أتباع فرعون لمَّا انهزموا لم يكن عندهم ذريعة إلَّا التحريض على موسى عليه السلام وأتباعه، وحجتهم أنهم من المفسدين في الأرض- حاشاه عليه السلام ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾[2].

(ج) النهي عن الفساد في الأرض:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا...﴾[3].

ولا شك أنَّ معنى الفساد عام ويدخل فيه إفساد البيئة وتدميرها.

قال ابن كثير رحمه الله : «ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضرّه بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد»[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٦.
(٤) تفسير ابن كثير- التفسير العظيم، ٤٢٩/٣.

وقال السعدي رحمه الله في تفسيره: «فإنّ المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق...»[1].

وقال أبو حيان في البحر المحيط: «هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض: إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان»[2].

٢- وقال- سبحانه-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

قال البقاعي رحمه الله في تفسيرها: «ظهر الفساد. أي: النقص في جميع ما ينفع الخلق في البر بالقحط والخوف ونحوهما، وفي البحر بالغرق وقلّة الفوائد من الصيد ونحوه من كل ما كان يحصل منه من قبل، بما كسبت أيدي الناس أي: بما عملت من الشر عقوبة لهم عن فعلهم»[4].

«وبالوقوف عند هذه الآية والتأمُّل فيها نجد أنها جمعت ثلاثة عناصر للفساد والإفساد:

العنصر الأول: حدوث تغيير بالبيئة المائية أو البرية ونشوء خلل في التوازن الفطري الذي خُلقت عليه من لدن العزيز الحكيم، فقد عبّرت عنه الآية الكريمة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. أي: ظهر التلوث والخلل بالموارد والنّعم التي بثها الله تعالى لعباده في البر والبحر فخبثت التربة ولم تعد قادرة على الإنبات وتعرض للخطر نباتها وثمارها فدبّ القحط والجدب.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٩٢.
(٢) البحر المحيط، ٧٠/٥.
(٣) سورة الروم، الآية ٤١.
(٤) نظم الدرر للبقاعي، ١٠٤/١٥.

وفعل «ظهر» فعل ماضٍ يدل على التغيير والعدوان على البيئة الذي وقع بالفعل غير أنه يومئ إلى ديمومة واستمرار ذلك التغيير والإفساد الذي لحق وما زال يلحق بالموارد البيئية التي خلقها الله.

العنصر الثاني: انتساب ذلك التغير إلى الإنسان وأفعاله، فقد عبَّرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾. أي: أنَّ أعمال الإنسان هي المسؤولة عن الفساد والتدمير الذي أصاب ثروات وموارد البيئة، وحرف الباء يفيد لزوم السبب والصلة بين ما اقترفته أيدي الإنسان وما لحق بما بث الله في الطبيعة من موارد ونعم. فالمشكلة البيئية راجعة في حقيقتها إلى التعدي على البيئة وتلويثها واستنزاف خيراتها بفعل البشر.

العنصر الثالث: وهو إلحاق أو احتمال لحوق الضرر بالموارد البيئية بفسادها وتدهور حالتها وصيرورتها غير صالحة وباتت مخلوقات الله من إنسان وحيوان وجماد في خطر ويتهددها التدهور والفناء، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ والمراد لحوق المعاناة وذوق الضرر والأذى الذي نتج عن عمل الإنسان فكأنَّ الإنسان يتحمَّل نتائج إفساده في الأرض وتلويثه لما خلق الله فيها، فيلحقه الضرر والعذاب، بمخالفته أمر الله وخروجه عن سننه في تعامله مع ما أنعم عليه.

ثم دعاهم – سبحانه – للرجوع عن البغي والفساد في الأرض بقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[1].

٣- وقال- سبحانه-: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[2].

---

(١) انظر: كتاب «الإسلام والبيئة»، محمد مرسي محمد، ص١٠٦-١٠٩ بتصرف يسير.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

٤- وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ...﴾[١].

قال ابن كثير: «فهلّا وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عمَّا كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض»[٢].

ثانيًا: من السُّنَّة النبوية:

الناظر في نصوص السُّنَّة النبوية يجد أنها غنيَّة جدًّا في النهي عن الفساد عمومًا، وإفساد البيئة خصوصًا، ووجوب المحافظة عليها، وسأعرّج على بعض الأدلة للمثال وليس للحصر:

١- قال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[٣].

هذا الحديث من القواعد الفقهية الكلية التي يندرج تحتها قواعد كثيرة، وأما معناه فقد قال ابن عبد البر: «وقال الخشني: الضرر الذي لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة، والضرار الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة»[٤].

ووجه الدلالة يتضح بما نصَّ عليه الإمام الشاطبي رحمه الله؛ حيث قال: «فإنه داخل تحت أصل قطعي في هذا المعنى، فإن الضرر والضرار مبثوث منعه في الشريعة كلها، في وقائع جزئيات وقواعد كليات...

ومنه النهي عن التعدي على النفوس، والأموال، والأعراض، وعن الغصب، والظلم، وكل ما هو في المعنى إضرار أو ضرار»[٥]. ويدخل في ذلك بلا شك إفساد البيئة والتعدي عليها.

---

(١) سورة هود، الآية ١١٦.
(٢) التفسير العظيم، ٣٦٠/٤.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥٥/٥، رقم (٢٨٦٥)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الأحكام- باب: من بنى في حقه ما يضر جاره، ٢٨٤/٢، رقم (٢٣٤)؛ وقد صححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في الإرواء ٤٨٠/٣.
(٤) التمهيد لابن عبد البر، ١٥٨/٢٠.
(٥) انظر: الموافقات ١٨٥/٣ بتصرف.

٢- قال ﷺ: «لعن الله من غيَّر منار الأرض»[١].

ووجه الدلالة: أن رسول الله ﷺ لعن من يعبث بعلامات الأرض فيغيّر معالمها ويعبث بحدودها ليقتطع من أرض جاره شيئًا[٢].

فلما كان هذا التغيير لجزء من أجزاء البيئة يستوجب اللعن فكيف بمن يدمرها ويتلفها عمدًا؟!!

٣- قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٣].

وقد قال الحسن البصري رحمه الله : «الأبرار الذين لا يؤذون الذرّ والنّمل»[٤].

ووجه الدلالة من الحديث ظاهرة؛ فالمسلم كامل الإسلام يجب أن يسلم الناس من لسانه ويده، وسلامة البيئة من سلامة الناس والعكس صحيح.

٤- قال ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الأضاحي- باب: تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله، ١٥٦٧/٣، رقم (١٩٧٨).

(٢) انظر: جامع الأصول لابن الأثير، ٧٦٧/١٠.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان- باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ١١/١، رقم (١٠)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان- باب: بيان تفاضل الإسلام، ٦٥/١، رقم (٤١).

(٤) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، ٦٢/١.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم- باب: من سنَّ سُنَّة حسنة أو سيئة، ٢٠٥٩/٤، رقم (١٠١٧).

قال الإمام النووي رحمه الله : «هذا الحديث صريح في الحث على استحباب سنّ الأمور الحسنة وتحريم سنّ الأمور السيئة»[1].

ولا شك أن حماية البيئة والمحافظة عليها سُنَّة حسنة يجب تعميمها ونشرها، وأن إفساد البيئة والتعدي عليها سُنَّة سيئة يجب محاربتها والتحذير منها.

– مما سبق يتضح جليًّا أن إفساد البيئة محرم شرعًا وأن الواجب المحافظة على هذه النعمة التي استخلفنا الله عليها وسيسألنا الله عنها ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[2].

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، ٢٢٦/١٦.

(٢) سورة التكاثر، الآية ٨.

المبحث الثاني

عناية السُّنَّة النبوية بالمحافظة على البيئة

سأجعل هذا المبحث من شقين:

المطلب الأول: صور وإشارات لحماية البيئة البرية والمحافظة عليها.

المطلب الثاني: صور لإتلاف البشر بيئتهم البرية مخالفين للهدي النبوي الشريف.

ويكمن سبب تقسيمي لهذا المبحث فى أننى وقفت بحمد الله على نصوص كثيرة واضحة وصريحة توجب علينا أن نراقب الله- سبحانه- ونشكره على هذه النعم ومنها البيئة الصالحة، وكذلك نحرص كل الحرص على المحافظة عليها وعدم التعدي عليها.

ثم تطرقت لبعض صور الإتلاف الذي هو من صنيعة البشر وكيف أنهم بفعلهم وإفسادهم للبيئة البرية خالفوا الهدي النبوي.

المطلب الأول: صور وإشارات لحماية البيئة البرية والمحافظة عليها:

يتباهى الغرب ومن هو في فلكه من أبناء المسلمين بأن لهم قصب السبق في الاهتمام بقضايا البيئة والعناية بها، لكن من يتدبر ويتأمل نصوص الكتاب والسُّنَّة يجد أن الإسلام هو أول من أسس ووضع القواعد البيئية دقيقها وجليلها، وبهذا نرد على المتأثرين بالغرب، لكن دون جدوى، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكم

قد ضلَّ من كانت العميان تهديه

- ولذا وجب علينا النصح وتذكير الأمة الإسلامية بالرجوع إلى مصدر سعادتهم وهو الوحي الكريم ليكونوا على علم وبصيرة بعظمة هذا الدين الحنيف.

والبيئة في الإسلام كلمة جامعة تشمل جميع مناحي الحياة، تشمل الأرض التي تقلّنا، والسماء التي تظلّنا، والبيئة المحيطة بنا.

قال ﷺ : «إن الدنيا حلوة خضرة وإنّ الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون»(١).

والعلماء- رحمهم الله- استنبطوا القواعد الفقهية للتعامل مع قضايا البيئة المستجدة، لذلك نصّوا عليها، فمنها: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، و«ما أدّى إلى حرام فهو حرام»، و«درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح»، و«الضرر لا يزال بمثله أو بضرر أكبر منه»، و«المصلحة العامّة قبل المصلحة الخاصة»، وغيرها.

وصدق الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ إذ قال: «يجب أن يُعرف الشر كما يُعرف الخير، فالذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه»(٢). فالشر يُعرف ليُتقّى، والخير يُعرف ليؤتىَ.

ويمكن حصر الأحاديث الشريفة التي تناولت الموضوع في ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: مظهر حماية البيئة البرية ورعايتها:

وسأتناوله من جانبين:

أ - حث السُّنَّة النبوية على نظافة البيئة البرية.

ب- نهي السُّنَّة عن الإضرار بالبيئة البرية.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الرقاق- باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، ٢٠٩٨/٤، رقم (٢٧٤٢).

(٢) انظر: مقال «موقف الإسلام من العبث بالبيئة» للدكتور مولاي البرجاوي، بتصرف واختصار.

(أ) صور حثّ السُّنَّة النبوية على نظافة البيئة البرية:

١- اعتبار النظافة والمحافظة عليها شعبة من شعب الإيمان.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»(١).

٢- اعتبار النظافة نوعًا من أنواع العبادات لقوله ﷺ : «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له...»(٢).

٣- سبب لجلب الحسنات ودخول الجنة؛ لقوله ﷺ : «من أماط أذى عن طريق المسلمين كُتبت له حسنة، ومن تُقبلت له حسنة دخل الجنة»(٣).

٤- أنها من أبواب الخير، ووصية النبي ﷺ لحديث أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: «قلت: يا نبي الله علمني شيئًا أنتفع به؟ قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين»(٤).

٥- أنها شعار المسلمين وإحدى حسنات الأمة يوم القيامة؛ لقوله ﷺ : «عُرضت عليَّ أعمال أُمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق...»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان- باب: بيان عدد شعب الإيمان، ٦٣/١، رقم (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة- باب فضل التهجير إلى الظهر، ٢٣٣/١، رقم (٦٢٤).

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد- باب: عزل الأذى عن الطريق، ١٣٦/٣، رقم (٤٧٤٨) بإسناد حسن.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة- باب: فضل إزالة الأذى عن الطريق، ٢٠٢١/٤، رقم (٢٦١٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: المساجد ومواضع الصلاة- باب: النهي عن البصاق في المساجد في الصلاة وغيرها، ٣٩٠/١، رقم (٥٥٣).

(ب) النهي عن تلويث البيئة البرية:

التحذير من تلويثها وأنها سبب لسخط الله ولعنته؛ لقوله ﷺ : «اتقوا اللَّعانَيْن. قالوا: وما اللعانين يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»(١).

قال النووي: «المراد اتقوا فعل اللعانين. أي: صاحبي اللعن، وهما اللذان يلعنهما الناس في العادة، والله أعلم»(٢).

قال الخطابي وغيره من العلماء: «المراد بالظل- هنا- مستظل الناس الذي اتخذوه مقيلًا ومناخًا ينزلونه ويقعدون فيه، وأمَّا قوله ﷺ : «الذي يتخلى في طريق الناس» فمعناه يتغوّط في موضع يمرّ به الناس، وما نهى عنه في الظلال والطريق لما فيه إيذاء المسلمين بتنجيس من يمرّ به ونتنه واستقذاره».

وفيه إبطال لمنفعة الناس بما يحتاجون إليه من مكونات البيئة العامّة من الطرق والشوارع وظل الأشجار وكل الأماكن العامة، وأيضًا منع لتلويث البيئة وإفسادها والحث على المحافظة عليها ونظافتها(٣).

وقال ﷺ : «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»(٤).

فالسُّنَّة النبوية اعتنت بحماية البيئة ورعايتها ونظافتها بشكل عام، والبيئة البرية بشكل خاص، فكانت شعارًا للمسلمين يوم القيامة عند عرض الأعمال، وحذرت من إفساد البيئة البرية وتوعّد الشارع الحكيم باللعن من يتعمَّد إلحاق الضرر بها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة- باب: النهي عن التخلي في الطرق والظلال، ٢٢٦/١، رقم (٢٦٩).
(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ١٦١/٣.
(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ١٦٢/٣.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الطهارة- باب: المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، ٧/١، رقم (٢٦).

المجموعة الثانية: مظهر حماية البيئة النباتية ورعايتها:

البيئة النباتية هي إحدى ركائز البيئة المحيطة بالإنسان لما تلعبه من دور فاعل في حفظ التوازن البيئي.

والغطاء النباتي هو أحد المظاهر المهمة التي اعتنت السُّنَّة النبوية بها ووضعت لها الضوابط والأسس الكفيلة بحمايتها ورعايتها ولها عدة صور منها:

١- حثّ السُّنَّة النبوية على الغرس والزراعة حتى نهاية العمر أو قريب من قيام الساعة للمبالغة في الحثّ على الزراعة.

جاء من حديث أنس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قَال: «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألَّا تقوم حتى يغرسها فليفعل»(١).

٢- حثّ السُّنَّة النبوية أصحاب الأرض الزراعية على زراعتها بأنفسهم وإن لم يستطع فليزرعها أخاه المسلم القادر عليها.

لما روى جابر ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يزرعها فليزرعها أخاه»(٢).

٣- حثّ السُّنَّة على الزراعة والغرس والتشجير من خلال تشريع امتياز تمليك الأرض لمن قام بإحيائها وزراعتها؛ لحديث عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق... الحديث» أي أحق بها(٣).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٢٩٦/٢٠، مسند أنس - ﷺ - رقم (١٢٩٨١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البيوع- باب: كراء الأرض، ١١٧٦/٣، رقم (١٥٣٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المزارعة- باب: من أحيا أرضًا مواتًا، ٨٢٣/٢، رقم (٢٢١٠).

(٤) المصدر السابق.

٤- اعتبار السُّنَّة النبوية الزراعة والحرث والغرس باب من أبواب الخير الذي يعود على صاحب الزرع بالأجر والثواب والخير مما يكون مدعاة للفوز بمرضاة الله.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلَّا كان له به صدقة»(١).

وقول النبي ﷺ «ما من مسلم يغرس غرسًا إلَّا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السّبع منه له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة»(٢).

٥- تحذير السُّنَّة وترهيبها ونهيها عن قطع الأشجار والنباتات ظلمًا وإسرافًا وجعلها مدعاة لجلب سخط الله تعالى وغضبه ودخول النار.

قال ﷺ : «من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار»(٣).

سُئل أبو داود عن معنى الحديث، فقال: هذا الحديث مختصر، يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثًا، وظلمًا بغير حق يكون له فيها، صوَّب الله رأسه في النار(٤).

وأوصى الرسول ﷺ جيشه في غزوة مؤتة وهو يتأهَّب للرحيل: «لا تقتلن امرأة، ولا صغيرًا ضرعًا- أي ضعيفًا- ولا كبيرًا فانيًا، ولا تحرقنّ نخلًا، ولا تقلعن شجرًا، ولا تهدموا بيتًا»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة- باب: فضل الغرس والزرع، ١١٨٩/٣، رقم (١٥٥٣).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة- باب: فضل الغرس والزرع، ١١٨٨/٣، رقم (١٥٥٣).
(٣) أخرجه أبو داود في سننه- باب: في قطع السدر، ٣٦١/٤، رقم (٥٢٣٩).
(٤) سنن البيهقي، ١٥٢/٩، رقم (١٨١٤٨) بلفظ مقارب.
النسائي في السنن الكبرى، كتاب: الضحايا- باب: من قتل عصفورًا بغير حقها، ٣٦٦/٤، رقم (٤٥٢٠).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد- باب: تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ١٣٦٤/٣، رقم (١٧٣).

وعلى نفس الهدي سار أبو بكر الصديق ﷺ إذ قال في وصيته لأمير أول بعثة حربية في عهده وهو أسامة بن زيد، قال له: «لا تخونوا.. ولا تقطعوا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة..»[1].

هذه الوصية تُعدّ أدبًا من آداب الجهاد في الإسلام واشتملت على تشريعات للحفاظ على البيئة حتى في الأوقات الحرجة وهي حالة الحرب، فهذه أخلاق الإسلام في الحرب فكيف بها في السلم؟!

فمن باب أَوْلى العناية والمحافظة على البيئة النباتية والزراعية.

وليس هناك تحريض على الغرس والزرع إلى آخر رمق في حياة الإنسان من الحديث الشريف: «إن قامت القيامة...» ؛ لأنه يرشد إلى ما يجب أن يكون عليه المسلم من طبيعة منتجة وخيّرة تحثه على العمل حتى عند اقتراب قيام الساعة هذا من جهة، ومن جهة أخرى أرشدت السُّنَّة إلى مسألة عدم ترك الأرض تفسد فإن تعذر على المسلم زراعة أرضه منحها إلى غيره من المسلمين لزراعتها وعمارتها وبالتالي المحافظة على الغطاء النباتي.

كما تعتبر السُّنَّة هي أول من وضع المحفزات المادية للمحافظة على البيئة النباتية من خلال القاعدة «أنَّ من عمَّر أرضًا وأحياها فهو أحق بها» أي فهي في ملكه إن لم يكن لها صاحب.

كما وضعت العقاب لمن اعتدى على البيئة النباتية كمن يعتدي بقطع الأشجار وغيرها عبثًا وظلمًا وعدوانًا وإسرافًا لا لفائدة أدخله الله النار.

وضربت السُّنَّة مثلًا بشجرة «السدر» ويقاس عليها كل أنواع الشجر دون تفصيل.

---

(١) انظر: سنن البيهقي الكبرى- باب: من اختار الكف عن القطع والتحريق، ٨٥/٩.

المجموعة الثالثة: مظهر حماية البيئة الحيوانية ورعايتها:

إن البيئة الحيوانية إحدى مكونات البيئة الطبيعية وتسهم بشكل كبير في تأمين الأمن الغذائي للإنسان، لهذا نجد السُّنَّة النبوية أوْلتها اهتمامًا بالغًا وحثت على حماية الثروة الحيوانية من الإتلاف والرفق بها.

وقد قرر الفقهاء أحكامًا تُعنى بالرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال ومنها: «وجوب النفقة على مالك الحيوان فإن امتنع أُجبر على بيعه، أو الإنفاق عليه أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه»(١).

١- ويعتمد الإسلام مبدأ الرفق بصورة عامّة في جميع شؤون الحياة، قال ﷺ: «إنَّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»(٢).

٢- وتوافرت النصوص على أنَّ الإحسان إلى الحيوان والرفق به عبادة من العبادات، وهي سبب من أسباب المغفرة والرحمة، كما جاء في الحديث: «إن امرأة بغيًّا رأت كلبًا في يوم حار، يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها- أي استقت له بخفّها- فغفر لها»(٣).

وجاء من طريق آخر فيه زيادة عند مسلم: «يا رسول الله وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجرًا»(٤).

٣- حثّ السُّنَّة على المحافظة على حياة الحيوانات من خلال تجنب إتلافها وإزهاق أرواحها عبثًا وظلمًا وإسرافًا وأن ذلك سبب لعقاب الله. قال رسول الله ﷺ: «ما من إنسان يقتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عنها يوم القيامة، قيل يا رسول الله وما حقها؟ قال: حقها أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمى بها».

---

(١) انظر: من روائع حضارتنا، د. مصطفى السباعي، ص١١٣.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: السلام- باب: فضل ساقي البهائم المحترمة، ١٧٦١/٤، رقم (٢٢٤٥).
(٤) المصدر السابق، رقم (٢٢٤٤).

وقال – أيضًا–: «من قتل عصفورًا عبثًا عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني لمنفعة»(١).

٤– التحذير الشديد من الابتعاد عن تعذيب الحيوانات وحماية حقوقها حسيًّا ومعنويًّا مما يكون مدعاة لعذاب الله وسخطه.

أ – الاعتداء والتعذيب الحسي:

جاء من حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ عليه حمار قد وُسم في وجهه فقال: «لعن الله الذي وسمه»(٢).

ورأى رسول الله ﷺ قرية نمل حُرِّقت فقال: «من حرق هذه؟ قلنا: نحن حرقناها. فقال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «عُذبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذْ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»(٤).

وجاء من حديث شدّاد بن أوس أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحدّ أحدكم شفرته فلْيُرِح ذبيحته»(٥).

---

(١) أخرجهما النسائي في سننه الكبرى، ٧٣/٣، رقم (٤٥٣٤، ٤٥٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: السلام– باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، ١٦٧٣/٣، رقم (٢١١٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الجهاد، باب: كراهية حرق العدو بالنار، ٥٥/٣، رقم (٢٦٧٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: تحريم قتل الهرة، ١٧٦٠/٤، رقم (٢٢٤٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيد، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، ١٥٤٨/٣، رقم (١٩٥٥).

ب- الاعتداء والتعذيب المعنوي على الحيوانات:

عن ابن مسعود ﷺ قال: «كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمْرة معها فرخان، فأخذنا فرخيْها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش. فلما جاء رسول الله ﷺ قال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»(١).

٥- من دقيق ما جاء في السنة النبوية للمحافظة على الموارد الحيوانية وترشيد استخدامها قول رسول الله ﷺ لمضيفه من الأنصار الذي أراد إكرامه فأخذ المدية لذبح شاة: «إياك، الحلوب»(٢).

قال المناوي رحمه الله : «أي: احذر ذبح شاة ذات لبن فعولة بمعنى مفعولة، يقال: ناقة حلوب. أي: هي مما يُحلب»(٣).

وبهذا يربي رسول الله الأمة على قيمة المحافظة على الموارد البيئية التي أنعم الله ﷻ بها علينا مع النظر إلى مصلحة المجتمع مع المصلحة الخاصة، شاة غير حلوب تغني عن الحلوب التي ينتفع بها صاحبها والمجتمع(٤)(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، باب: كراهية حرق العدو بالنار، ٣/٥٥، رقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الأشربة- باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ٣/١٦٠٩، رقم (٢٠٣٨).

(٣) انظر: فيض القدير للمناوي ٣/١١٩.

(٤) انظر: الحفاظ على البيئة ومواردها، د. محمد الشرباني، ص٣٣.

(٥) ما سبق جمع وتلخيص من عدة أبحاث ومقالات أهمها:

- الإسلام والبيئة، د. مصطفى العلواني.
- الإسلام والبيئة، د. محمد مرسي.
- حماية الشريعة للبيئة الطبيعية، د. هناء فهمي.
- البيئة ومظاهر حمايتها في السُّنَّة، للأستاذ إبراهيم حمودي.
- حماية البيئة بين الشريعة والقانون الكويتي، محمد المسيكان.
- موقف الإسلام من العبث بالبيئة، د. مولاي البرجاوي.
- البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، د. محمد النجيمي.

المطلب الثاني: صور لإتلاف البشر بيئتهم البرية مخالفين الهدي النبوي الشريف:

من خلال البحث توصلت في المطلب الأول إلى ثلاث مجموعات أكدت السُّنَّة النبوية وجوب المحافظة عليها ورعايتها وحرّمت الاعتداء عليها.

لكنَّ بعضًا من المسلمين جهلًا منهم أو لا مبالاةٍ أو باعتداءٍ وظلمٍ تسببوا بإفساد البيئة البرية التي وجب عليهم المحافظة عليها وعدم الاعتداء عليها.

ونستطيع إرجاع ذلك لسبب رئيس وهو الأنانية الفردية للإنسان وجهله بما ينتج عن تصرفاته، وهذا ينافي التوجيه النبوي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

فهو في سبيل تحقيق معاشه أو متعته ولهوه قام بإفساد البيئة، وقد حصرتها من خلال سبر الواقع المحيط بنا إلى أهم وأخطر صور الفساد والإفساد إلى ثلاثة صور:

الصورة الأولى: الرعي الجائر:

من القواعد المهمة في البيئة البرية أن الناس شركاء في ثلاث كما نصّ عليه الحديث «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء، والكلأ، والنار»[2].

فمن باب المشاركة ينبغي لكل صاحب ماشية أو بهيمة أنعام أن يرعى في حدوده وألَّا يستأثر بالأرض وما فيها لنفسه ويمنع غيره بداعي عدم الكفاية، وفي الحقيقة الطمع والجشع، وهذا مخالف للقواعد الشرعية.

أضف إلى ذلك أنَّ البعض قد يجعل لها الحِمى ليمنع غيره من الاستفادة منها، وكذلك قد يحصدها ليجمعها له ليطعم ماشيته وحده ويحرم غيره، وهذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان- باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١٢/١، رقم (١٣).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٧٤/٣٨، رقم (٢٣٠٨٢).

يسمى الرعي الجائر الذي لا يصلح للبيئة بل يفسدها ويجعلها معرضة للفساد والتلوث.

إذ من معاني الفساد: الجدب. أي: التصحر وهو ما يحدث اليوم على الأرض؛ حيث يؤكد العلماء أن المساحة الخضراء تتقلّص بفعل الاستخدامات غير السليمة من قِبَل البشر، وسوف تزداد الأراضي الجافة والمتصحرة في الأعوام القادمة بسبب زيادة التلوث.

كذلك حرَّم الإسلام الإفساد في الأرض، ونهى عن التخريب الذي يتسبب فيه الإنسان للبيئة السليمة(١).

وقد سبق الكلام في المبحث الأول عن حرمة الفساد والإفساد، وكذلك أوضحت عناية الإسلام بالزراعة والبيئة حتى في حالات الحرب والخطر.

وهنا توجيه لأصحاب الماشية اتقوا الله في بيئتكم البرية، وحافظوا عليها، ولا تكونوا سببًا لإتلافها والعدوان عليها لتدوم لكم وللأجيال التي ستأتي بعدكم.

وحوّل البعض نعمة الماشية إلى نقمة تغتال البيئة من خلال الرعي الجائر حتى أصبحت غالبية الأراضي صحراء جرداء وذلك بسبب قتل النباتات ويمهّد الطريق لزحف التصحر.

– والتصحّر هو تحوُّل كثير من الأراضي في العالم إلى مناطق صحراوية، ويهدد التصحر العديد من شعوب العالم في الوقت الحاضر؛ لأنه يقلل من إنتاجية الأرض، ويحول كثيرًا من الأراضي إلى مناطق لا تصلح لحياة الإنسان أو الحيوان.

وقد واجه الإسلام التصحر عن طريق الدعوة إلى إحياء الأرض الموات واستصلاحها واستعمارها بما يفيد الأمة ويزيد الإنتاج. عن عروة قال: «أشهد أن رسول الله ﷺ قضى أنَّ الأرض أرض الله، والعباد عباد الله، ومن أحيا مواتًا فهو

(١) انظر: موقف الإسلام من العبث بالبيئة، د. مولاي البرجاوي.

أحقُّ بـه»[١]. وأمـر بالزراعـة حتـى تظـل الأرض خـضراء تـسر النفـوس وتحيـي القلوب[٢].

الصورة الثانية: الاحتطاب الجائر:

هذه الصورة لها ارتباط قوي بالرعي الجائر فكلاهما تعدٍّ على البيئة البرية النباتية، لكن هنا الاعتداء عليها بقطع الأشجار وحرقها وتدميرها ظلمًا وعبثًا وإسرافًا لا لفائدة، لذلك حذر رسول الله وتوعّد من قطع السدر بالعقاب الشديد ويقاس عليه كل أنواع الشجر دون تفصيل، فهذه العناية والحماية والرعاية هي وصية الرسول ﷺ بهذه البيئة، وهي وصية خلفائه من بعده لجيوشهم في وجوب المحافظة على البيئة من الإتلاف والتدمير والقطع والحرق.

ولا بد أن نشير في هذا الموضع إلى أن الحياة النباتية الحاضرة لم تسلم من التدمير سواءً بالرعي الجائر أو الاحتطاب الجائر[٣].

فالتحذير من التلوث الأرضي يتجلَّى من خلال نهي الشارع الحكيم عن كل ما يتلف خصوبة الأرض ويُعجزها عن العطاء؛ لذلك شجع الأنشطة الإنسانية التي تقوي التخصيب الأرضي من خلال الحث على الزراعة التي هي من الموارد الأساسية التي تحمي بيئة الأرض، وجعل الاهتمام بها عبادة، ويترتب عليها الجور العظيمة، كما قال ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الخراج والإمارة- باب: في إحياء الموات، ١٧٨/٣، رقم (٣٠٧٦). وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد.
(٢) انظر: حماية الشريعة للبيئة الطبيعية، د. هناء فهمي، ص٢٨٩.
(٣) انظر: البيئة ومظاهر حمايتها، د. إبراهيم حمودي، ص٣٧ بتصرف يسير.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحرث والمزارعة- باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم (٢٣٢٠)؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة- باب: فضل الغرس والزرع، رقم (١٥٥٢).

ولحماية الزرع والثمار نهى رسولنا الكريم عن بيع الزرع قبل اشتداده مخافة التلف وحدوث العاهة، عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ «نهى عن بيع الثمار حتى يبدو صلاحها». وعن مسلم أيضًا أنه «نهى عن بيع النخل حتى يزهو، وعن بيع السنبل حتى يبيض ويأمن العاهة».

وكذلك حثّ على الغرس والزرع وفيه تشجيع التشجير ومحاربة التصحر. قال رسول الله ﷺ : «من نصب شجرة، فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله ﷻ»[1][2].

الصورة الثالثة: الصيد الجائر:

هو الصيد الذي يتم بطريقة عشوائية وغير مسموح به خلال فترة زمنية محددة من العام، ويعتبر صيدًا غير شرعي وتعاقب عليه كافة القوانين الدولية لما ينتج عنه من تهديد للبيئة وتدمير مكوناتها الطبيعية وخصوصًا المرتبطة مع النظام الغذائي والذي يجعل الكثير من الحيوانات تهاجر من مناطق سكنها الأساسية.

- مخاطر الصيد الجائر:

ينتج عن الصيد الجائر مجموعة من المخاطر، أهمها:

- يؤثر سلبًا على دورة حياة الحيوانات من خلال منعها من النمو والتكاثر.
- يسبب انقراض العديد من الحيوانات خصوصًا في المناطق النائية.
- ينشر التلوث البيئي.

والصيد المباح في الإسلام هو الذي يكون لحاجة الإنسان، وقد نهى رسول الله عن إتلاف الحيوان لغير منفعة، فقد قال: «من قتل عصفورًا عبثًا...» الحديث[3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٢٩/٢٧، رقم (١٦٥٨٦).
(٢) انظر: موقف الإسلام من العبث بالبيئة، د. مولاي البرجاوي، بتصرف واختصار.
(٣) سبق تخريجه، ص٢٣.

وجاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا»[1].

وفي عهد سجستان على العرب أمرهم ألَّا يقتلوا قنفذًا ولا يصيدوه؛ لأنها بلاد أفاع، والقنافذ تأكلها، ولولا ذلك ما كان لهم قرار بها[2].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٢٢/٤، رقم (٢٥٣٢).

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة، ٣٢٠/١.

المبحث الثالث

العلاج النبوي لحماية البيئة البرية

بعد تحديد المظاهر السلبية للبيئة البرية أردت أن أُبيِّن العلاج من منظور السُّنَّة النبوية ليعمل به المسلمون، وبذلك يحافظون على هذه النِعم التي سيُسألون عنها، ومنها البيئة البرية التي بها مصالحهم ومعيشتهم.

أولاً: نظام الحسبة في الإسلام ودوره في معالجة القضايا البيئية:

نشأت الحسبة في الدولة الإسلامية نتيجة تطوُّر الحياة فيها، وكان النبي ﷺ أول من مارَس وظيفة المحتسب في الحديث المشهور والخاص بصاحب الطعام الغشَّاش الذي وضع السليم منه أمام الناس وأخفى المعيب الذي يبيعه للناس، كما قال ﷺ : «من غشَّنا فليس منا»[1].

ومارَس بعض من خلفائه الراشدين هذه الوظيفة وعيَّنوا لها بعض المسلمين الذين قاموا بها خير قيام.

ويعتبر نظام الحسبة بحق تطبيقًا رائعًا لأخلاقيات الإسلام وقواعده السلوكية[2].

والذي يهمنا –هنا – دور المحتسب في حماية البيئة من جميع ما يفسدها، وللعناية بصحة المسلمين حياتهم، لكي يحيا المجتمع المسلم حياةً نظيفة طاهرة قادرة على قيادة البشرية لخيرها وإسعادها في الدنيا والآخرة.

والمحتسب هو الرقيب الذي يتابع سير التعامل بين الناس في أسواقهم ومصانعهم ودور عبادتهم ومساكنهم وطرقاتهم، وهو عارف بأحكام الشريعة، قاصد في حسبته وجه الله تعالى، ملتزم بما يأمر به، متواضع متودد ومتقرِّب من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٥٥/٢٥، رقم (١٥٨٣٣)؛ وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٥٦٣/٤، رقم (٢٣١٤٧).

(٢) انظر: دور المحتسب في الوقاية من تلوث البيئة، د. عوض الله عبده.

الناس، ليِّن القول، طلق الوجه، حسن الخلُق، وقد عُرفت للمحتسب تدخلات كثيرة في شؤون المجتمع منها الكثير مما يتعلق بالبيئة نذكر منها: يمنع مجاري الأوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف، ويهتم بالخبّاز بتنظيف الفرن قبل استعماله وغيرها.

وهكذا عمل نظام الحسبة على وقاية المجتمع من كثير من مظاهر الفساد التي تنتج عن أنانية الأفراد أو جهلهم وتسبب في تلويث البيئة أو نشر الأمراض.

وقد أدى هذا النظام دورًا مهمًا في توجيه المجتمع وضبط سلوكياته بمنطق الشرع والأخلاق(١).

– فبما أنَّ المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة أقامت الشريعة توازنًا عادلًا بين مصالح الأفراد ومصلحة المجتمع.

وصور الحديث التالي الحدود التي تحدّ من حرية الأفراد في التصرف والسلوك بما يحمي مصلحة المجتمع ويصونه من كل أنواع الضرر.

فعن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثَل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثَل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا، ونجوا جميعًا»(٢).

فهذا الحديث يبيِّن وجوب تحرك المجتمع لوقف أي ممارسة في التعامل مع موارد الأرض إلى الإضرار بمجموع الأمة(٣).

---

(١) انظر: الإسلام والبيئة، د. محمد فتح الله الزيادي، ص١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشركة– باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ١٣٩/٣، رقم (١٣٩).

(٣) انظر: حماية الشريعة للبيئة الطبيعية، د. هناء فهمي، ص٢٨٥.

ثانيًا: وضع القوانين التي تردع المتمردين من الذين لم يرتدعوا بالأحكام الشرعية:

من الطبيعة البشرية التي رسخها ديننا الحنيف أن هناك نوعًا من البشر لا يمنعهم عن الفساد والعدوان إلَّا الأحكام والقوانين الصارمة من قِبَل الدول والحكومات وهذا مصداق لقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ: «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن»[1]. وأيضًا من أمِنَ العقوبة أساء الأدب.

لذلك، ولله الحمد، الدول الإسلامية سنَّت قوانين لردع مثل هؤلاء لكن لا يمنع من تطويرها وإضفاء الصبغة الشرعية عليها.

ثالثًا: المحميَّات البيئية في الإسلام:

من أجل الحفاظ على الأنواع وعدم انقراضها أوجد علماء البيئة ما يسمى بالمحميات البيئية تحميها من التلف، وتحافظ عليها من الانقراض.

وفكرة المحميات فكرة قديمة أتى بها الإسلام وطبَّقها واقعيًّا، وهي تشير إلى رقة الإسلام وعطفه ورهافة حسّه في تعامله مع الحيوان والشجر والنبات، كما تدل على حرمة المكان وعلى منزلته وسمو قدره عند الله وعند المسلمين.

ولم يقتصر الإسلام على إنشاء المحميات؛ بل حرَّم على الإنسان وهو في حالة معينة من أحوال العبادة التعرض للبيئة؛ فقد حرّم على المحرم وهو يؤدي فريضة الحج الصيد وقطع الشجر وإلحاق الأذى بالمخلوقات إلا دفاعًا عن النفس أو اتقاء الضرر[2].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (٤١٦/١١): (... ولكن في بعض فوائد العقوبات المشروعة في الدنيا ضبط العوام. كما قال عثمان بن عفان ﷺ: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فإن من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بما يشاهده من العقوبات وينضبط عن انتهاك المحرمات فهذا بعض فوائد العقوبات السلطانية المشروعة.

(٢) انظر: الإسلام والبيئة، د. مصطفى العلواني، ص١٣٨.

رابعًا: محاربة التصحر وتشجيع التشجير:

وقد سبق الكلام عليه[1].

خامسًا: إحياء الموات.

سادسًا: إقطاع الأرض وتوزيعها.

سابعًا: الترخيص بتأجير الأراضي الزراعية واستخدامها كمحميات طبيعية للحيوانات.

ثامنًا: ترشيد استخدام الموارد البيئية بالاعتدال، وعدم الإسراف حفاظًا عليها من الاستنزاف:

وذلك من خلال: الأمر بالوسطية والاعتدال في استغلال البيئة ومواردها بشكل عام، وهذا من حُسن التدبير والحفاظ على البيئة[2].

---

(١) ص٢٧ من هذا البحث.

(٢) انظر: الحفاظ على البيئة، د. محمد الشرباني، ص٣٢.

الخاتمــة

الحمد لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، على إتمام هذا البحث.

وبعد هذه الجولة السريعة توصلت إلى نتائج سأذكر أهمها:

١- ديننا الحنيف وضع القواعد والأسس التي تُظهر جماله وكماله، فهو بحق خاتم الأديان.

٢- الاهتمام بالبيئة عمومًا، وبالبيئة البرية خصوصًا، من العبادات العظيمة التي يترتب عليها الأجور والحسنات الدائمة.

٣- الترهيب والوعيد لمن تَعمَّد إتلاف البيئة وإفسادها، فالله لا يحب الفساد والمفسدين.

٤- عناية المسلم بالبيئة تدل دلالة واضحة على شكره للمنعم والنعم.

٥- التعدي على البيئة بالإسراف والإتلاف منافٍ للقواعد الشرعية ويوقع صاحبه في المحظور.

٦- الحلول النافعة والعلاجات الناجحة للمشاكل البيئية تكمن في تطبيق التوجيهات الشرعية والابتعاد عن مخالفتها.

٧- ينبغي الاستفادة من أصحاب التخصصات العلمية الفنيّة في مجالات البيئة ودمجهم بالعلماء الشرعيين لتخرج الحلول الدقيقة المفيدة.

التوصيات:

ختامًا لهذا البحث فإنِّي أقترح التوصيات الآتية:

١- نشر ثقافة المحافظة على البيئة وتشجيعها لدى الشباب، وذلك عن طريق إدراجها في المدارس والجامعات.

٢- قيام الأسرة بدورها الأصيل في التربية والعناية بهذا الجيل خصوصًا ما يتعلق بالمحافظة على البيئة البرية والتحذير من إتلافها.

٣- نشر الأبحاث والدراسات الشرعية وترجمتها للعالم ليتضح جمال الإسلام وكماله وعنايته بالبيئة.

٤- التأكيد على الحكومات والمنظمات المدنية أن تسعى في رفع درجة الوعي البيئي وتشجيع الناس للمساهمة فيه.

أهم المراجع

- القرآن الكريم.
- الإسلام والبيئة، د. محمد مرسي، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية- الرياض، ط. الأولى، ١٤٢٠هـ.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط. الثانية، ١٤٢٠هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي، وزارة الأوقاف المغربية، ١٣٨٧هـ.
- تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي (ت١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط. الأولى، ١٤٢٠هـ.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، ط. الأولى، ١٣٨٩هـ.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- سنن أبي داود (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين، المكتبة العصرية.
- شرح صحيح البخاري، لابن بطال (ت٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر إبراهيم، ط. الثانية، ١٤٢٣هـ.
- شرح صحيح مسلم، للنووي (ت٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط. الثانية، ١٣٩٢هـ.
- صحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط. الأولى، ١٤٢٢هـ.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (ت١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية، ط. الأولى، ١٣٥٦هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، عام ١٤١٤هـ.
- المستصفى، لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى، ١٤٢١هـ.
- الموافقات، للشاطبي (ت٧٩٠هـ)، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط. الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ت(٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

المراجع الخاصة بالبيئة:

- الإسلام والبيئة، أ. د. محمد فتح الله الزيادي، الإمارات العربية المتحدة (بحث).
- الإسلام والبيئة، د. مصطفى العلواني.
- الآيات والأحاديث الواردة في حماية البيئة الطبيعية وتطويرها، أرشيد بكر مصطفى، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م.
- البيئة ومظاهر حمايتها ورعايتها في السُّنَّة النبوية، د. إبراهيم طه حمودي.
- حماية البيئة الطبيعية في الشريعة الإسلامية، موزة صفاء، ٢٠٠٦م.
- حماية البيئة دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون الكويتي، محمد المسيكان، جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٢م.
- حماية الشريعة الإسلامية للبيئة الطبيعية- دراسة فقهية مقارنة، د. هناء فهمي (بحث محكم).

مقالات مهمة في الموضوع:

- البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، د. محمد النجيمي (بحث).
- التوازن والاختلال البيئي، د. مولاي البرجاوي.
- الحفاظ على البيئة من منظور القرآن والسنة، د. محمد الشرباني.
- حماية البيئة في ضوء القرآن والسُّنَّة، د. صباح حداث و د. جيهان الطاهر.
- دور المحتسب في الوقاية من تلوث البيئة، د. عوض الله عبده.
- مقاصد الشريعة في المحافظة على البيئة، د. محمد جبر الألفي.
- منظور القرآن والسُّنَّة في الحفاظ على البيئة، د. عبد الباسط عبد الرحيم.
- موقف الإسلام من العبث بالبيئة، د. مولاي البرجاوي.

* * *